

يوسف باشا القرامانلي على غدامس

بشير قاسم يوشع

من المعلوم أن علي باشا القرامانلي الذي تولى حكم طرابلس سنة ١٧٥٤م كانت الانكشارية مسيطرة عليه وكانت توجهه حسب رغبتها، بالاضافة الى تعرض البلاد لوباء الطاعون سنة ١٧٨٥م مما سبب في انتشار الفوضى ، وادى الى اشعال نار الحرب بين القبائل ، وانحدار الحالة الاقتصادية الى اسوأ حال ، فانتهز ابنه الاصغر يوسف الذي كان يتوق لحكم طرابلس الفرصة ، وغدر بأخيه الاكبر حسن المرشح لولاية العهد ، وقتله بمساعدة اعوانه ابشع قتلة عرفها التاريخ ، وذلك في يوليو ١٧٩٠ م ، ولضعف والده « علي » لم يستطع أن يفعل شيئا سوى أن يرسل في طلب حضور ابنه أحمد وامن ابنه القاتل وطلب منه الحضور أيضا، وباجتماع يوسف بأخيه أحمد أفهمه أنه لم يقتل أخاه بسبب ولاية العهد بل من أجل مشاجرة جرت بينهما ، وانه لا يمانع أن يكون أخوه أحمد الذي هو اكبر منه وليا للعهد .

وفي يوم ٢٠ يوليو ١٧٩٠ م أعلن أحمد بن علي القرامانلي وليا للعهد ، ولكن أهالي مصراته لم يقبلوا أن يحل يوسف محل أخيه حاكما لمصراته ، وهو الذي ما زالت يداه ملطختين بدم أخيه، مما حز في نفس يوسف وطلب من أبيه أن يجرد حملة عليهم برئاسته لتاديبهم وارجاعهم الى الخضوع والطاعة وقبوله حاكما عليهم ، ولفهم والده وفطنته الى الابعاد التي كان يرمي اليها ابنه يوسف تردد في أول الامر ولكن ضعفه تغلب عليه فوافق على هذا الاقتراح على الرغم من عدم اقتناعه به .

وبعد نجاح يوسف وانتصاره على مصراته تخوف أخوه أحمد أن يكون ضحية أخيه يوسف الثانية ، وطلب من والده أن يعين يوسف على برقة ليكون بعيدا عنه ولا تتعرض حياته للخطر ، ولكن يوسف الذي لم يكن يرضيه سوى أن يحكم طرابلس ، ولا يتورع عن قتل أخيه العقبة الوحيدة في طريقه لولا الحراسة الشديدة التي احاط نفسه بها ، فكر في أن ينقلب على أبيه وينزع منه الحكم ويتخلص منهما جميعا .

وفي ليلة ٢٣ يونية حاول يوسف الاستيلاء على القلعة ، وفطن اخوه احمد لهذه المحاولة فاغلق أبواب القلعة في وجهه ، واستمر يوسف في مهاجمة المدينة بجموع غفيرة من الموالين له ، ولما شعر بالعجز عن فعل أي شيء للاحتياطات التي اتخذها والده وأخوه اضطر للانسحاب الى غريان وشرع في محاولة جمع الجنود لمهاجمة المدينة كرة أخرى .

أرسل له والده خطابا بالعفو وطلب منه الحضور الى طرابلس ، على أن يعينه (بيكا) لبنغازي ولعلم يوسف بعداء أهالي بنغازي لاخيه أحمد رأى أن يستغل هذه الفرصة ، ويوحد صفوف أهالي بنغازي ويزحف بهم على طرابلس وبينما هم في غمرة هذه الخلافات والانقسامات والمنازعات والمكائد وصلت الى ميناء طرابلس يوم ٢٨ يونيو ١٧٩٣ م سفن تحمل

العلم العثماني ، ونزل منها حوالى ٤٠٠ رجل مسلح وعلى رأسهم شخص يدعى (قبجي باشا) ، وتلا على الناس مرسوما سلطانيا أعلن فيه اسقاط على القرامانلي ، وتولية على أفندى الجزائرلى بدلا عنه ، وطلب من على القرامانلي الخضوع لأمر السلطان ، وهدد بقرب وصول قبودان باشا على رأس اسطول كبير .

على اثر هذا الحادث المفاجىء ، اجتمع على باشا القرامانلي بأعضاء ديوانه للتشاور معهم فى الامر ، ورأى الديوان تسليم المدينة الى على الجزائرلى الذى هو الوالى الجديد من قبل السلطان ، أما يوسف الذى سمح له أبوه بدخول المدينة للتعاون على هذا الامر صمم على ضرورة القتال مهما كلف الامر من تضحيات ، ولكن والده قرر مغادرة البلاد والالتجاء الى تونس ، وخرج مع أولاده ليلا ، واتجهوا الى حدائق الباشا خارج المدينة .

قام يوسف بمهاجمة المدينة مع انصاره عدة مرات ، ولما فشل فى استرجاعها قرر السفر مع والده الى تونس . وفى الحدود التونسية وجدوا مندوب باى تونس ولجنة مشكلة من أهل المدينة فى استقبالهم وواصلوا معهم السير الى العاصمة ، واستقبلوا من طرف الباى حمودة باشا بكل حفاوة واحترام وتقدير .

— فى رسالة للصدر الاعظم الى السلطان العثماني فى خصوص هذا الامر تفيد أن على الجزائرلى بعد أن خرج من الجزائر استأجر عددا من المراكب التجارية ، وجند عددا كبيرا من المرتزقة ، وجاء بهم الى طرابلس وأن المرسوم الذى أظهره للشعب بتوليته باشا على طرابلس من السلطان العثماني كان مزورا — .

وبعد أن تم الامر لعلى باشا طلب من الدولة العثمانية مساعدته بكميات من البارود والقنابل والمدافع لاخضاع القبائل الثائرة بطرابلس ، ولم يشأ الصدر الاعظم الراى القاطع فى هذا الامر ، ولكن السلطان رأى أن يساير الواقع ويهمل المغلوب الفار الى تونس ، وينصر الغالب المستولى على طرابلس . واعترف بولاية على الجزائرلى ، وأمر بتزويده بالجند والسلاح والبارود وأصدر أمره الى باى تونس بعدم مساعدة على القرامانلي .

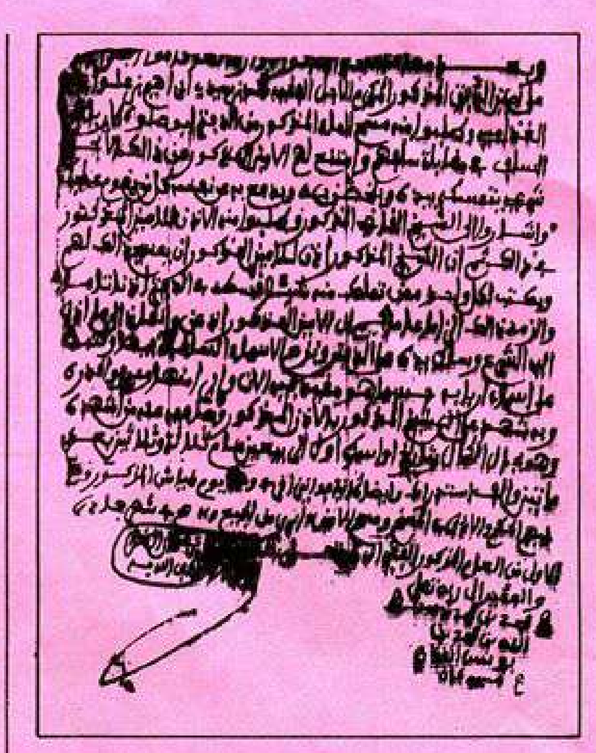
بقى أحمد ويوسف فى مضايقة وحصار المدينة بثمانية آلاف رجل ، ولم يحيدا عن موقفهما حتى بعد وصول مبعوث الوالى الجديد من اسطنبول حاملا اليه (القفطان) وفرمانا من السلطان يطالب الثائرين بالوقوف مع الباشا الجديد .

أرسل على الجزائرلى جيشا بقيادة قره محمد جربه وقام باحتلالها فى ٢٤ ديسمبر ١٨٩٤ م كما قام فى السنة نفسها بالاستيلاء على سفينة تونسية ، وبها حوالى ٧٥ بحارا واقتادها الى طرابلس ونهب محتويات السفينة ، وبعد هذا التحدى قام باى تونس بارسال جيش عن طريق البحر وفيه على باشا القرامانلي ، وجيش آخر عن طريق البر بقيادة الحاج مصطفى خوجة ومعه يوسف وأحمد القرامانلي وذلك فى نوفمبر ١٧٩٤ م .

ولما أيقن على الجزائرلى عدم استطاعته مواجهة هذين الجيشين فر هاربا عن طريق البحر بعد أن عبأ ثلاث سفن بمنهوباته من طرابلس متجها نحو مصر فى ١٩ يناير ١٧٩٥ م .

وهكذا عادت عائلة القرامانلي لحكم طرابلس ، وبعد اتصالات حمودة باشا بالسلطات العثمانية تمت الاستجابة لطلبه بتعين أحمد حاكما على طرابلس ، وصدر فرمان بذلك ، واسندت ولاية العهد الى يوسف ، وبما أنه كان لا يرضيه الا الجلوس على عرش طرابلس بدأ يرسم خططه لاقصاء أخيه عن الحكم باستمالة الاهالى الذين استجابوا لرغبته .

كان من عادة هذه العائلة الذهاب الى تاجوراء ليلة النصف من كل شعبان لزيارة الأولياء وفى هذه المناسبة ، خرج يوسف مع أخيه أحمد لهذه العادة ، وفى غفلة من أخيه عاد الى طرابلس ، وأمر أنصاره باغلاق الأبواب ، وذلك فى سنة ١١٩٩ ه.ر ولما علم أحمد بذلك لم يعد الى طرابلس بل اتجه الى مصراته ، وبهذا تمكن يوسف بعد كثير من



الخداع والدماء من الوصول الى حكم طرابلس ، وبسعى من حمودة باشا أيضا لدى الدولة العثمانية ورد اليه فرمان السلطان بتوليته رسميا باشا لطرابلس فى سنة ١٢٠٠ و.ر.

يقول عزيز سامح فى كتابه (الاتراك العثمانيون فى افريقيا الشمالية) كانت واحة غدامس فى السابق تابعة لطرابلس ، الا أنها منذ خمس سنوات انفصلت عن طرابلس ، وأصبحت تدفع التكاليف الاميرية لتونس ، فبعث يوسف باشا ابنه على سنة ١٢٢٥ و.ر فأخذ من أهاليها ما يعادل الضرائب المدفوعة لتونس عن خمس سنوات وكانت تبلغ ٢٠٠٠٠ عشرين الف مثقال من الذهب و ١٢٠٠٠٠ ومائة وعشرين ألف محبوب ذهبي عن مصاريف الجيش ، ثم عاد الى طرابلس بعد أن ترك المأمورين الاداريين بها .

أما عمر بن اسماعيل فى كتابه (انهيار حكم الاسرة القرامانلية فى ليبيا ١٧٩٥ – ١٨٣٥) فيقول: (وفى سنة ١٨١٠ م قرر يوسف باشا ضم غدامس الى طرابلس فأرسل حملة الى غدامس بقيادة ابنه على ، وحينما وصلت هذه الحملة الى غدامس رفض الاهالى الخضوع لسلطة يوسف باشا ، فقام على بمحاصرتها لمدة ثلاثة أيام ، ولما شعر الأهالى بعجزهم عن المقاومة ، وخافوا ان يتعرضوا للسلب والنهب اذا انتصر هذا الجيش ، اجتمع العلماء منهم والوجهاء وطلبوا من على الامان نظير الاعتراف بسلطة الباشا فوافقهم على ذلك ، واشترط لرفع الحصار ما يأتى :

١ – دفع الضرائب التى دفعوها لتونس مضاعفة عن مدة الخمس سنوات الماضية، وقد قدرت هذه الضرائب بعشرين الف مثقال من الذهب .

٢ – دفع ١٢٠ الف محبوب ، أى حوالى ٤٨٠ الف فرنك نفقات الحملة .

٣ – اعادة دفع الضرائب كالمعتاد لطرابلس سنويا .

وذكر أحمد النائب فى (المنهل العذب) : أن المبلغ المفروض هو عشرون الف مثقال من الذهب العين ، وعشرون الف محبوب ، ويقول النائب .. وفى سنة (١٢٢١) احدى وعشرين ومائتين تجاسر الشيخ احمد سيف النصر.. وفى هذه السنة انتقضت غدامس ، وامتنعت عن اعطاء الجباية ، ويؤيد قوله هذا ماذكره عزيز سامح أن الانتقاض وقع قبل خمس سنوات من ارساله الحملة ، وهو سنة ١٢١٤ و.ر .

ولكن هل حقا انتقضت غدامس ودفعت ضرائبها لتونس ؟ ولماذا استبدلت جابيا بآخر ! ، وان صح هذا فهل تم بمساع من الحكام التونسيين ، أم كان ذلك رغبة أهالى غدامس ، ثم لماذا تأخرت مساعى يوسف باشا فى استرجاع هذه الواحة الهامة لتجارة السودان لخمس سنوات كاملة ، واخيرا لماذا لم يحاول باى تونس استعادة هذه المدينة أن كانت حقا انضمت اليه ولم يحرك ساكنا ؟

هذه الاسئلة تفرض نفسها ولا نكاد نجد لها اجوبة سوى هذه الاسطر القليلة التى تتحدث عن هذه الحملة ، ثم ان كلمة الضم التى استعملها الاخ عمر بن اسماعيل كان الاولى أن يستعمل بدلها كلمة استرجاع مادامت غدامس سبق أن اعترفت بالحكم القرامانلى وكانت تدفع له ضرائبها ، ولم تمتنع عن ذلك الا قبل خمس سنوات من الحملة .

أن المصادر التى بين أيدينا حتى الآن لا تعطينا أية أضواء حول هذه الامور ، ولا يعدو أن تكون غدامس التى تعتبر نفسها حرة ولا تدفع الضرائب الا كنوع من الترضية لتسلم تجارتها ، كفت عن هذا الدفع الذى لم تجد له أى مبرر سوى الابتزاز والتسلط ليس الا . أولها أن الحكام التونسيين حاولوا جس نبض الحكام الطرابلسيين ، وطالبوا غدامس بدفع ضرائبها اليهم حتى تكون تجارتها الصحراوية فى مأمن ، وكانت فى المقام الاول حريصة على سلامة هذه التجارة ، ولا يضيرها دفع ضرائبها للحاكم الأقوى المهيمن على المنطقة مادام أهلها أحرارا فى تجارتهم ، دون أن يشعروا نحوه بأية تبعية ، وبهذه الوثيقة التى ستنشر لاول مرة سنناقش بعض ما كتب عن هذه الحملة ، لتنير لنا الطريق ، وتسلط بعض الأضواء على هذه الواقعة .

انها وثيقة اقرار اتفاق بين أهالى محلتى غدامس،

وبني وليد ووازيت من القاضي الشيخ الفقيه على إبن عبد الله بن مدور ، وهي تتضمن اعترافا بحكم يوسف باشا قبل وصول حملته الى غدامس ، اذ تقول بالحرف الواحد (٠٠ ومواجهة للحملة القادمة الينا من أمير المؤمنين حاكم دار الجهاد مدينة طرابلس سيدنا يوسف باشا أعزه الله تعالى ، وزاده عزا ونصرا) ، كما توضح لنا هذه الوثيقة أن الأهالى قد تم الاتفاق فيما بينهم على تحضير المال اللازم دفعه للحملة قبل وصولها اذ تقول : (وقام حينئذ أهالى بلد غدامس بني وليد وبني وازيت ، وارادوا بيع المال المذكور ودفع ثمنه فى موجباتهم اللازمة)٠ وهذا ينفي أنهم خارجون عن هذا الحكم ، كما اورد الذين أرخوا لهذه الحملة من أن الاهالى رفضوا الخضوع لسلطة يوسف باشا ، والحال أنهم علموا بقدوم هذه الحملة سلفا ، فاعدوا لها ما يلزمها من دفع الاموال الواجبة ، ــ خلافا لحملة رمضان باى قائد القوات البرية التونسية سنة ١٠٠٧ و٠ر التى استعدوا لها بتهريس البارود وترميم الأسوار ، وقابلوها بما يقابل به الغزاة الطامعون من الاستعداد للحرب والقتال ــ ٠

كما أن تاريخ الوثيقة ، وهو أواسط الربيعين عام ١٢٣٢ و٠ر يجعلنا لا نطمئن للتاريخ الذى أورده عزيز سامح والنائب وهو سنة ١٢١٤ و٠ر عن هذه الحملة ، اذ أن الوثيقة تقول : (وبعد مصالحة الحملة وارتحالها قام أهل البلد على أمين الدفتر) ٠٠ولا يمكن بحال أن تتم المصالحة وترحل الحملة سنة

الوثيقة رقم

الحمد لله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا طيبا

كان ظهر بعين بلد غدامس (١) من ساقية تصكو (٢) ثلاثة ضراميس غير ربع ضرميسة ما ليل (٣) من وجبة ليلة الفرس (٤) ، من ذلك ضرميسة وربع مقيد وحده ٠ أيضا (٥) ضرميسة وربع للكفارات (٦) وربع ضرميسة على اسم المستورات (٧) ، وايضا تنامين اثنين (٨) واحدى عشر فانز (٩) ماء نها ، من ذلك نتامين واربعة فوانز فى وجبة يوم صالح على اسم الكفارات ، وسبعة فوانز فى وجبة يوم طياش على اسم المستورات حسبما هو مقيد فى الدفتر ، وصار ذلك من مجهولات الارباب ، حق من حقوق المسلمين ٠

وقام حينئذ أهل بلد غدامس ، بنى وليد وبنى وازيت ، وارادوا بيع الماء المذكور ، ودفع ثمنه فى موجباتهم اللازمة ، ومواجهة للحملة القادمة الينا من أمير المؤمنين حاكم دار الجهاد مدينة طرابلس ، سيدنا يوسف باشا أعزه الله تعالى ، وزاده عزا ونصرا (١٠) وفى ضرورياتهم ومصالحهم التى لابد منها (١١) ، وطلبوا من الشيخ الفقيه القاضي سيدى على بن سيدى عبد الله بن محمد بن مدور الموافقة فيما ذكر ، وناولوه البرنامج المنسوخ من الدفتر القائم فيه القيود المذكورة على حسب نصه عن التفصيل ٠ وتصفحه الشيخ المذكور وحقق نظره وفكره فيه ، فالفاه كما ذكر ، وحكم بملكيته واباحه بيعه ، ووافق لهم فى أن يصرفوه فى المصاريف المذكورة حيث تبين لهم من الصلاح والسداد فى الحال والمال (١٢) ، الموافقة التامة ، ثم انهم تسلفوا حينئذ من أناس متعددة ما يقابل الماء المذكور لتغذية بيعه حينئذ ، وواجهوا به الحملة المذكورة حتى يوافوهم بالسلف المذكور فى المستقبل ٠

وبعد مصالحة الحملة المذكورة وارتحالها قام أهل البلد على أمين الدفتر المذكور المكرم الاجل الفقيه محمد بن سيدى ابراهيم بن علوان الغدامسى ، وطلبوا منه مسح المال المذكور من الدفتر ليوصلوه لارباب السلف فى مقابلة سلفهم ، وامتنع لهم الامين المذكور عن ذلك الا بحكم شرعى يتمسكه بيده ويتحصن به ويدفع به عن نفسه كل من يقوم عليه ، وأشاروا الى الشيخ القاضى المذكور وطلبوا منه الاذن للامين المذكور فى ذلك ٠

ثم أن الشيخ المذكور أذن للامين المذكور أن يمسح ذلك لهم ويكتب لكل واحد ممن تسلف منه شيئا قسطه فى الدفتر اذنا تاما ، والزمه ذلك الزاما عاما ، ثم أن الامين أذعن وانقاد (١٣) الى ما أذن اليه الشرع ، وسلط يده على الدفتر ، ونزع الاسماء السابقة فيها ، وكتبه على اسماء اربابه حسبما هو مقيد فيه الآن ، وابرا منها ، وعرفوا قدره ، وبه شهد على الشيخ المذكور بالاذن وبما فيه عنه من أشهده وهو بحال الكمال ، بتاريخ أواسط أول الربيعين عام ثلاثة وثلاثين بعد مائتين وألف ٠

(استدراك ، وايضا ثمانية فوانيز أخرى فى وجبة يوم طياش المذكور وعم عليهم الحكم والاذن فى المسح ، ومسح الامين وابرى من الجميع ، وبه صح فى شهر جماد الاولى من العام المذكور ، الفقير الى ربه تعالى بلقاسم بن عثمان الغدامسى لطف الله به) (١٤) والفقير الى ربه تعالى محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يونس الغدامسى كان الله له آمين ٠

١٢١٤ و٠ر ولا يطلب الأهالى اتمام الأمر الذى بدأوه ويعتبرونه من الامور الهامة الا بعد مرور ثمانى سنوات ٠

وعلى كل ارجو ان أكون بهذه الكلمة المتواضعة قد سلطت بعض الاضواء على هذه الحملة ووضعت هذه الوثيقة أمام الدارسين والباحثين علهم يكتشفون منها جوانب أخرى أهم ، لا تخفى على الناقد البصير ٠

بشير قاسم يوشع

المراجع

المراجــع :

١ ـ انهيار حكم الاسرة القرامانلية فى ليبيا ١٧٩٠ ـ ١٨٣٥م لعمر على بن اسماعيل ٠

٢ ـ المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ـ لاحمد النائب الانصارى الطرابلسى ٠

٣ ـ الاتراك العثمانيون فى افريقيا الشمالية ـ لعزيز سامح ٠

١ ـ يقصد عين الفرس ٠

٢ ـ فى الاصل ساقيت تصك ٠

٣ ـ ماء ليل = يسقى بالليل ، علما بان هذه العين كانت تجرى ليلا ونهارا ، والمالك لماء الليل يسقيه فى الليل ، والمالك لماء النهار يسقيه فى النهار ، ولكن الغى هذا النظام فيما بعد، واصبح المزارعون يسقون فى اى وقت تصل المياه الى مزارعهم دون مراعاة لهذه القاعدة ٠

٤ ـ ليلة انفوس الماء بهذه العين ، كان يدور على ١٣ يوما ـ اعنى ليلا ونهارا ـ ، وكل يوم يسمى باسم معين ، وهى : انفوس ـ عمران ـ مولى ـ صالح ـ بقايا ـ اسحاق ـ طياش ـ بالى ـ آدم ـ سنجاسن ـ عقبة ـ اكاى ـ شطـار ٠

٥ ـ فى الاصل ايضا ،وقد تكرر هذا فى هذه الوثيقة وهذا مالوف فى بعض الكتابات الغدامسية ٠

٦ ـ الكفارات = غير مفهوم ٠

٧ ـ المستورات = غير مفهوم ٠

٨ ـ نتام = حساب عين الفرس ، لا يستعمل فى المدةالاخيرة٠

٩ ـ فانز = حساب لا يستعمل اخيرا ٠

١٠ ـ فانز = حساب لا يستعمل اخيرا ٠

١١ ـ فى الاصل لابد منه ٠

١٢ ـ فى الاصل المـال ٠

١٣ ـ فى الاصل انقاذ ٠

١٤ ـ الاستدراك بين قوسين ، هو بخط مخالف للخط الاول الذى كتب به الحكم الذى لم يعرف كاتبه ، اما الاستدراك فهو بخط الشاهد الاول بلقاسم بن عثمان الغدامسى ٠